الحزب القريشي وضياع فلسطين

د. حامد العطية

ما بين نشوء الحزب القريشي وضياع فلسطين ما يزيد على 1400 عاماً، لكن الصلة بينهما وثيقة، على الرغم من بعد الشقة في الزمان والمكان، وهي سببية في تقديري، ولو صعب على الكثيرين الاقتناع بذلك، وتكفي نظرة سطحية على بعض السجالات والعداوات المخضرمة لتبيان تأثير التاريخ البعيد المضطرب على الحاضر البائس، فما الذي جرى قبل 1400 عاماً وأدى إلى ضياع فلسطين وانخذال المسلمين عن الحفاظ عليها أو استرجاعها؟

في السقيفة وأدوا الأمة واستولدوا الدولة ومن بعدها الامبراطورية، وذلك مكمن كل الانحرافات والانحدارات في مسيرة الرسالة، فهي لم تكن مجرد فلتة، بل تدبير مع سبق الإصرار والتصميم، فما الذي حدث في ذلك الاجتماع؟:

أولاً: إحداث منصب الخليفة، أي خليفة رسول الله، والذي استمر بشكل أو آخر طيلة هذه القرون حتى ألغاه الحاكم التركي أتاتورك، وما زال الكثيرون الواهمون يعتقدون بأن إحياءه السبيل الوحيد لنهضة المسلمين من جديد. ولم يتوقف المشاركون في اختيار هذا المسمى عند إضفاء القرآن الكريم هذا المسمى على كافة البشر، فهم جميعاً مختارون من الله ليكونوا خلفاء في الأرض لتأدية مهام ومسؤوليات مستفيدين من امتيازات ونعم حباهم الله بها، كما أن النبي مختار من الله فكيف يخلفه مسلم غير مؤيد بوحي ولا

عصمة؟ لذا هو مجرد حاكم مدني لا ديني، لكان احداث هذا المنصب ضرورة للحزب القريشي ليكون نواة بدعة الدولة البديلة عن الأمة.

ثانياً: حصر الخلافة في قريش، في مخالفة جسيمة للمبدأ الإسلامي بأن لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ونقض فاضح لعالمية الدعوة، وتقويض للفرض الأكبر بإنشاء الأمة، متغافلين عن حقيقة أن اختيار محمد بن عبد الله للنبوة لخصائص فيه لا في قبيلته، بل كانت قبيلته على النقيض منه، وناصبته العداء، وأرادت القضاء على رسالته واغتياله، واهتداء عدد يسير من قريش لا يزيد القبيلة مكانة وشرفاً يسري على كل أفرادها، وما احتكار القريشيين للخلافة سوى استعلاء قبلي جاهلي بحت ساهم في حرف المسيرة عن هدفها الأسمى وهو بناء الأمة، نتجت عنه نزعات عنصرية، أعطت العرب مكانة أعلى ومزايا أفضل من بقية الشعوب المسلمة الأخرى، وكل من خالفهم وصموه بالشعوبية، ولو وجدت بالفعل فما هي سوى ردة فعل على عنصرية العرب أنفسهم.

ثالثاً: نشر التدين السطحي. ما أن أسس الحزب القريشي نواة الدولة حتى باشر بحملات عسكرية هوجاء لبسط سيطرته التامة غير المشروعة على المسلمين المعارضين وغيرهم ممن لم تصلهم الدعوة، فقتلوا الآلاف ممن رفضوا الاعتراف بدولة الخليفة وسلطته الدينية-المدنية التي وبحق اعتبروها وسيلة لهيمنة قريش على بقية المسلمين، وكان امتناع الكثيرين من المسلمين الأوائل عن دفع الزكاة لرجال الخليفة سبباً كافياً ليأمر الخليفة بقتالهم وقتلهم، فلا فرق في نظر الخليفة بينهم وبين رافضي الدعوة، ثم وبعد استقرار الأمر لدولة الحزب القريشي شنوا ما أسموه بالفتوحات بدعوى نشر الإسلام، وهي مخالفة أخرى كبرى للعقيدة القرآنية القاضية بسلمية الدعوة بالمطلق وتحريم قسر الناس على الايمان بها، ويبدو أن الدافع الحقيقي كان التوسع الجغرافي والاقتصادي للدولة القريشية،

ويستدل على ذلك من سخافة امهال حكام الشعوب الأخرى ثلاثة أيام لقبول الدعوة وإلا القتال لجيوشها وشعوبها ودفع الجزية لأتباع الكتب السماوية، وبالمقارنة فإن أبا سفيان الذي حارب الدعوة وسعى للقضاء عليها واغتيال الرسول وقتل العديد من المسلمين الأوائل طيلة عشرين عاماً أسلم وقبلوا إسلامه وحظى باحترام خاص لدى الحزب القريشي لأنه كما وصفوه "سيد قريش".

كانت نتائج ما سموه حروب الردة والفتوحات على الدعوة كارثية إذ نشرت الإسلام السطحي والنفاقي، من دون اكتراث لتفقه المسلمين لدينهم، فكان يكفي في نظرهم ممارسة الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج، ومناصرو الحزب القريشي الحاكم أقروا بذلك في دعواهم بأن دافع الكثيرين ممن دخلوا الإسلام التهرب من دفع الجزية ففكروا بفرضها عليهم ولو كانوا مسلمين، أما أهداف الإسلام الكبرى أي إصلاح الفرد والجماعة وبناء الأمة والتآخي بين المسلمين والتطور الاقتصادي فقد اهملت، فعلى سبيل المثال تجاوزوا عن السلوك المنحرف لمعاوية بن أبي سفيان والي الشام غير الجدير بالمنصب في تشييد قصره والتشبه بأباطرة الروم ولم يعترض على ذلك سوى أبو ذر الغفاري فكان مصيره النفي وأتهم بأنه يحمل الناس على ما لا يطيقون، وصار عثمان بن ابي عفان يوزع المال العام على أقاربه وغيرهم من الحزب القريشي مما أدى إلى استياء الكثيرين من المسلمين ومطالبته بالتنحي فرفض فقتلوه، وكان استحلال السلوكيات المخالفة لتعاليم وجوهر الدين بداية الانحراف العقائدي نحو الإسلام البراغماتي الذي كرسه الفقهاء في أحكامهم.

رابعاً: تحريف تعاليم الاسلام: هدد ظهور معارضة كبيرة في الأمصار المفتوحة ومقتل عثمان والصراعات الدموية بين المسلمين حول الخلافة ونشوء حركة الخوارج تماسك واستمرارية الدولة-الإمبراطورية القريشية، فكان لا بد من إيجاد نصوص دينية تقوي شرعيتها وتكون وسيلة لإسكات

وقمع المعارضة، فانتشرت أحاديث نسبت للرسول الأعظم كما راجت تفاسير لنصوص قرآنية تؤكد على ضرورة وجود خلفاء وبأنهم من قريش وهم أولياء المسلمين الشرعيون الواجب طاعتهم ولو ظلموا المسلمين وعذبوهم ولهم مطلق الحرية في اتخاذ القرارات والتصرف ببيت المال وشن الحروب واستعباد أو قتل الأسرى ودعوى السلف الصالح وعدالة الصحابة وسنة الصحابة والاجماع وغير ذلك من أمور تقوي وتبرر حكم الحزب القريشي ومناصريه، كما أنهم استثنوا بني هاشم من استحقاق الخلافة لأن الجمع بين النبوة والخلافة امتياز لا يقبله الناس كما ادعوا، ولكن على الأغلب تخوفوا من معارضتهم لاحتكار الحزب القريشي للسلطة، لذا فضلوا بني أمية المنضوين في الحزب القريشي.

خامساً: تشويه صورة الإسلام: شوهت قرارات وسلوكيات الحزب القريشي صورة الإسلام في أذهان العرب والشعوب الأخرى الذين وصلتهم الدعوة على حد السيف والتلويح بالعنف، وشن الحزب القريشي الحروب عليهم التي تخللتها مجازر وفظائع منها على سبيل المثال اعدام خالد بن الوليد مالك بن نويرة الممتنع عن دفع الزكاة للخليفة أبي بكر واستعمال رأسه حجراً لموقد طبخ الطعام والمسارعة إلى مضاجعة أرملته المفجوعة وكذلك تقتيل خالد بن الوليد وجيشه لأسارى الفرس براً بقسمه الفاجر ليسفكن دماءهم حتى تسيل كماء النهر، وقد وثق تاريخ الطبري هذه الأفعال الوحشية المخالفة لتعاليم الإسلام التي حظت بموافقة الخليفة أو تغاضيه عنها، وظلت هذه الصورة المشوهة للدين عقبة في انتشاره بين الأمم وتكوين الأمة.

سادساً: الحاكم المستبد والرعية الغنمية: ليضمن الحزب القريشي امساكه بالحكم وقمع المعارضة اتجه إلى الاستبداد ومنع أي مشاركة فعلية للمسلمين في أمور الحكم فصاروا مجرد رعية عليها واجب الطاعة ومن

خالفهم كان مصيره النفي أو الحبس أو حتى القتل، ونكلوا بالمدن التي خرجت على الطاعة فسلطوا عليها جيوشهم لتقتل وتنهب وتغتصب، وأدى حرمان المعارضين من ابداء أرائهم إلى ثورات وحركات مسلحة هددت استقرار الإمبراطورية القريشية وأطاحت بالدولة الأموية، ولم يتغير الوضع بعد استلام العباسيين مقاليد السلطة في الإمبراطورية.

سابعاً: العنف والإرهاب. لجأ الحكام المنتمين للحزب القريشي إلى العنف والإرهاب في بسط سيطرتهم على المسلمين من العرب وغيرهم، وهكذا استن الأوائل أنماطاً متعددة من العنف والتنكيل والتعذيب والإرهاب استمرت بعدهم، وغدت سوابق استند إليها مسلمون في أزمنة مختلفة وحتى الحاضر في تبرير سلوكياتهم الوحشية المنحرفة مما أدى إلى ترسخ صورة قبيحة لدين الرحمة في أذهان مسلمين وغيرهم ونفر الناس من الدين، وعمق الخلافات والتفكك بين المجتمعات الإسلامية.

انتهى عصر الحزب القريشي بسقوط الدولة الأموية في الأندلس، لكن بقيت المذاهب السنية التي أحيت تراث الحزب القريشي وحافظت عليه من الاضمحلال، وهي كسلفها لم تعط اهتماماً لتكوين الأمة، بل ساهمت وبصورة نشطة في تفتيتها وتعميق الفرقة بينها واختلاق الخلافات والصراعات بينها، وولى الأثرياء منهم ظهورهم للفقراء، وبدلاً من نصرة المظلومين منهم عقدت بعض الدول الإسلامية اتفاقيات التعاون والتنسيق مع ظالمي المسلمين، ونسجت معظم هذه الدول التي يتبع سكانها المذاهب السنية علاقات تحالف وشراكة مع أمريكا ودول الغرب التي لا تخفي عداءها للإسلام والمسلمين، ولدى أمريكا ودول الغرب قواعد عسكرية في هذه البلدان استخدمتها للعدوان على دول ومنظمات رافضة للوجود الغربي.

اختبرت قضية فلسطين الدول السنية ومدى التزامها بثوابت الدين ونصرة المسلمين المظلومين واسترجاع حقوقهم، وثبت أن كل ما بذلته من جهد عسكري وسياسي تافه وغير مجد ولا يرقى لأهمية القضية المصيرية، وأدى إلى خسارة كامل الأراضي الفلسطينية وتشريد الملايين من المسلمين السنة، وكشفت عن تخاذلها وضعفها بتخليها عن القضية وتوقيعها اتفاقيات سلام وتطبيع مع الكيان واقامت علاقات سياسية واقتصادية متميزة معه، وقبلت بسيطرة الصهاينة على المسجد الأقصى، وجاء اختبار غزة ليكشف ومن دون لبس أو شك انحطاط هذه الدول وشعوبها وسكوتها على ما يقترفه الصهاينة من إبادة جماعية بالقتل والتجويع بحق أخوتهم أهالي غزة الفلسطينيين بل وتعاونهم مع الكيان الصهيوني ومده بمختلف أنواع المساندة، فهم خالفوا ثوابت الإسلام وصاروا على ديانات أولياء أمورهم في الغرب والكيان. اليوم وفي غياب الأمة الإسلامية ضاعت فلسطين والبداية كانت عندما اختار الحزب القريشي هدفه الأعلى تأسيس الدولة وأفشل مشروع بناء الأمة.